

أبو الأعلى المودودي

المبادئ الأساسية لفهم القرآن

تعريب : خليل أحمد الحمادي

الناشر

الدار الكويتية

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب. ٢٠١٤٦ - الكويت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المبلى الاستبصار في فهم القرآن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م

كلمة المترجم

نتشرف بتقديم بحث طريف ممتع إلى القارئ العربي الكريم في موضوع جليل وهو موضوع طريقة دراسة القرآن ، أخرجته مفكر إسلامي كبير : هو الأستاذ أبو الأعلى المودودي كتوطئة لتفسيره للقرآن الكريم الذي سماه : « تفهيم القرآن » والذي صدر منه حتى الساعة أربعة مجلدات من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الأحقاف .

وقد تناول الأستاذ الجليل حفظه الله في هذا البحث المبادئ الأساسية التي لا بد لكل من يريد فهم القرآن ، وبلوغ ما احتوى الكتاب الإلهي من كنوز وذخائر ، أن يتبينها ويجعلها منطلق دراسته ودليل رحلته في عالمه الشاسع الأطراف . وهي المبادئ التي إذا لم يلتزم بها دارس هذا الكتاب ولم يدخلها في قائمة الحساب حين دراسته لا يستبعد أن يخرج من دراسته وهو لم يهتد بهديه الذي جاء به ، ولم يتبين ما دعا إليه ، ولم يستفد من كنوزه التي انطوى عليها كل حرف منه . وموجز القول أنه لم ينل منه ما يصلح به دنياه وآخرته ، اللهم إلا نزر يسير يحالفهم التوفيق الإلهي فيأخذ بيدهم إلى بر الأمان . وقد

أخرج الأستاذ المودودي (هذه المبادئ) بعد أن قطع من عمره فترات طويلة في الغوص في هذا البحر الذي لا نهاية له ، وسهل بذلك مهمة غيره من دارسي القرآن الكريم . عسى أن يجدوا في هذه الرسالة ما ينير لهم الطريق إلى بلوغ روح القرآن ودعوته بإذن الله .

ان هذه الرسالة هي جزء من « تفهيم القرآن » كما أشرنا اليه وقد ترجمناه إلى لغة الضاد ، ونشرناه في رسالة مستقلة . وهي كذلك جزء من عملنا في ترجمة « تفهيم القرآن » نفسه إلى اللغة العربية ، حيث ننوي إصدار هذا التفسير باللغة العربية سورة سورة ، داعين المولى الكريم أن يأخذ بيدنا ويشد أزرنا وبكتب لنا التوفيق حتى نكمل هذا العمل الجليل في أحسن وجه وأقرب فرصة . عليه توكلنا وإليه ننيب .

حرر في ٨ من ربيع الثاني ١٣٨٨ هـ

الموافق ٥ من حزيران ١٩٦٨ م

كتبه العاجز

خليل احمد الحامدي

معتد دار العروبة للدعوة الاسلامية

لاهور - باكستان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : وبعد ،

أسلوب الوحي وأسلوب البشر في الكتابة :

إن الكتب التي ندرسها عامة نجد أن جميع ما فيها من معلومات وأفكار ودلائل يدور حول موضوع بعينه ، بأسلوب تأليفي وبصورة منسجمة . ولأجل ذلك فالدارس الذي ليس له عهداً بالقرآن ، إذا أراد أن يدرسه أول مرة

في حياته فإنما يتناوله وهو على ظن أنه باعباره « كتاباً »
 سيكون على غرار عامة الكتب التي تعود قراءتها ، قد
 حدد موضوعه المنشود ، ثم قسم هذا الموضوع الى أبواب
 وفصول . وكذلك يظن هذا الكتاب قد تناول كل شعبة
 من شعب الحياة الانسانية على وجه الاستقلال بالبحث
 والعرض ليسرد ما يتعلق بها من أحكام وتعاليم بترتيب
 متسلسل . إلا أن الدارس اذا بدأ يتصفح هذا الكتاب
 يفاجأ بعكس ما كان يتوقعه ، فيجد أسلوباً لم يالفه من
 قبل ، إذ أنه يرى فيه المسائل العقائدية والتعاليم الخلقية ،
 والأحكام الشرعية ، والدعوة والنصيحة ، والعبارة والنقد ،
 والزجر والتخويف والترغيب ، والحجج والشواهد ،
 والقصص التاريخية ، والإشارات الى آيات الله في الكون .
 كل ذلك يتكرر بيانه بين حين وحين ، ويبدأ ويعاد
 بوجوه متباينة وأساليب متنوعة . كما أنه بينما يطرق
 موضوعاً فاذا به يولي وجهه شطر موضوع ثان وثالث . بل
 كون الأمر أغرب من ذلك ، حين يبتدئ موضوع ثم
 يتخلله موضوع آخر بغتة . كما يتبدل المخاطب والمتكلم
 بين حين وآخر ، وتتجه وجهة المحاوراة الى جهات مختلفة
 مرة بعد أخرى .

أما تقسيم المواضيع والمباحث الى أبواب وفصول فلا عين له ولا أثر . وإذا نوقش فيه التاريخ لم يناقش على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ . وإذا سيقت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور ما وراء الطبيعة ، لم تسبق في مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق . وإذا ذكر الانسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على منهج العلوم الطبيعية . وإذا تطرق الموضوع الى شؤون المدنية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع في البحث والتمحيص . وإذا أتى على ذكر من الأحكام القانونية وأصول التشريع لم يأت بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال . وإذا عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة السلوك رأيته يختار لها النمط الذي يغير سائر ما كُتِبَ ودوّن في هذا الباب .

إن الدارس إذا وجد هذا وأمثاله على غير ما ألفه من أساليب الكتابة وأنماط البيان ، وعكس ما تعودّه من مناهج التعبير تأخذه الدهشة ويبدأ يستشعر أن هذا الكتاب ينقصه الترتيب ويعوزه التنسيق . ويشكّل من

أوله الى آخره مجموعة من شذور متناثرة وقطع مبعثرة
ُجمعت في عبارات متسلسلة وحلقات متماسكة .

أما الدارس الذي لم يؤمن بهذا الكتاب ، ولا يريد من
دراسته إلا إثارة الشبهات ، فهو يجد في فقدان الترتيب
والتنسيق متسعاً لإثارة الاعتراضات المنوعة حول الكتاب .
وأما المؤمن به والخاضع له فتتجاذبه المواقف والأطوار .

فمرة يغمض نظره عن المطالب خلال دراسته .
وأخرى يطمئن قلبه بتفسيرات عديدة لانعدام التناسق
الظاهري .

وثالثة يأتي بنتائج غريبة لمحاولته إيجاد وجوه للتناسق
وذلك باجتهاد شخصي متكلف .

ورابعة يستسلم لفكرة « شذور متناثرة » فتصبح كل
آية من آياته معزولة عن السياق العام . وتعود مسرحاً
لابتكار المعاني التي تخالف ما يريده العزيز الحكيم .

معلومات أولية ضرورية :

ولكي تتحقق دراسة جديدة لكتاب من الكتب ، من

الضروري جداً أن يكون الدارس قبل كل شيء على معرفة بموضوع الكتاب ، وعلى علم مسبق بمقاصده وغاياته المتوخاة والبحث الرئيسي فيه ، وعلى اطلاع بطرائق أسلوبه ، وعلى خبرة بمصطلحات لغته ونمطه الخاص في التعبير وأن لا يغيب عن نظره الأوضاع والملابسات التي تكمن وراء ألفاظه ونصوصه .

إن عامة الكتب التي ندرسها نجد فيها الجوانب التي أشرت إليها بكل سهولة، ولذلك لا نلاقي صعوبة في استكناه أسرارها وبلوغ مغزاها . ولكننا لا نعثر عليها في القرآن بالشكل الذي تعودناه في غيره من الكتب . ولذلك إذا بدأ يدرسه أحد منا لعامة الكتب فلن يستطيع التعرف على موضوعه وغاياته وبحثه الرئيسي ، وسيستغرب أسلوب بيانه وطراز تعبيره، ويعزب عن نظره الملابسات الكامنة وراء ألفاظه في معظم المواضع .

ونتيجة لذلك فإنه يحرم من التوصل إلى روح كلام الله ، ورغم استفادته قليلاً أو كثيراً من لآلئ الحكم

القرآنية المشرقة المتناثرة . وبالتالي يضطر الى الاكتفاء بحفنة من حكم مبعثرة ، وإلى اقتطاف قبضة من زهور متناثرة بدلاً من أن يلم بعلم الكتاب ويطول فيه بآعه . بل أن بعض الناس الذين يقعون في شبهات وأخطاء بعد دراسة القرآن ، يعزى سبب ضلالهم الى أنهم قرأوا القرآن دون سابق إلمام بالقواعد اللازمة لفهمه فصادفوا المباحث المختلفة المتنوعة متناثرة في صفحاته ، ولم يظهر لهم مغزى كثير من آياته ، ورأوا العديد من الآيات كأنها جواهر تتلألأ بنور من الحكمة الربانية ، ولكنها فيما يبدو غير منسجمة مع سياق العبارة السابقة واللاحقة . وكثيراً ما قذفهم جهلهم بأساليب القرآن التعبيرية ، وأغاطه البيانية إلى معانٍ غير مقصودة . كما وقعوا في ضروب من سوء الفهم لكثير من الآيات لأنهم ما عرفوا أسباب نزولها .

القرآن من أي أنواع الكتب ؟ وما هي كيفية نزوله ؟ وما هو سر ترتيبه ؟ وما هو الموضوع الذي يدور حوله كل نقاشه ؟ وما هي الغاية التي يتوخاها من بحثه ؟ وما هو البحث الرئيسي الذي يحوم حوله جميع ما فيه من مباحث

منوعة ومواضيع مختلفة؟ وأي لون من الاستدلال وأي
نقط من البيان اختاره للتعبير عما يهدف إليه .

هذه وأمثالها من الأسئلة المهمة إذا وقف الإنسان على
الردود عليها في مطلع الأمر فإنه يستطيع أن يتفادى كثيراً
من المخاطر والمزالق وهو بصدد دراسة القرآن . كما
تتوسع في وجهه سبل فهمه وتدبره . ومما لا خلاف فيه أن
الذي يريد في القرآن الترتيب التأليفي المتداول ثم يتخبط في
صفحاته خبط عشواء إذا لم يبلغ ما يريد ، فإن مبعث
تخبطه ومثار حيرته ليس إلا أنه لم يتعلم ما لدراسة القرآن
وفهمه من أصول وقواعد ولأنه بدأ يطالع القرآن ظناً منه
أنه يطالع « كتاباً » موضوعه « الدين » ، ويكون في
تصوره « للكتاب » و « للدين » على ما يكون في أذهان
عامة الناس من تصور « للدين » و « للكتاب » . بيد أنه
حين يواجه في هذا الكتاب ما يختلف عن تصوره الذهني
يجد نفسه لا تأنس إليه . ويظل يتيه بين دفتي الكتاب
لعجزه عن معرفة نقطة الانطلاق في بحثه . ويكون مثله
في ذلك كمثل النزيل الغريب الذي يهيم على وجهه في دروب

مدينة كبيرة . ويمكن أن يتفادى هذا الضياع لو أخبر
مقدماً بأن الكتاب الذي يريد دراسته هو نسيج وحده في
عالم التأليف . وتم « تأليفه » على نمط لم يتم عليه تأليف
الكتب الأخرى . كما أنه فذ فريد باعتبار موضوعه وبجثه
وترتيبه .

فالقلب العام للكتاب كما تتصوره نتيجة دراستك
للكتب والمؤلفات حتى اليوم لا يسعفك في تفهم هذا
الكتاب أبداً ، بل يثير الحواجز دون طريقك . وإذا
أحببت أن تفهمه ، عليك أن تبعد عن ذهنك كل ما
أثبت فيه من تصورات وقياسات ، وأن تدرك ما لهذا
الكتاب من خصائص بديعة ومزايا رائعة .

أصل القرآن :

يجب على قارئ القرآن أن يعرف قبل كل شيء
« أصل » القرآن ، سواء آمن به أو لم يؤمن به . لأنه ما دام
يريد فهم هذا الكتاب فلا بد له أن يقبل ابتداء أصله كما
ورد فيه وكما بينه الذي أنزل عليه هذا الكتاب وهو

رسول الله محمد ﷺ .

ويمكن أن يتضح أصل القرآن في النقاط الآتية :

١ - إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون ومالكه وحاكمه ، خلق الإنسان في جزء يسمى « بالكوكب الأرضي » من أجزاء مملكته التي لا نهاية لها ، وأودعه قوى العلم والتفكير والإدراك ، وألهمه تمييز الحبيث من الطيب ، وأعطاه حرية في الإدارة والاختيار ، ومنحه سلطة للتصرف في الأمور كما يشاء ، وخوله نوعاً من الاستقلال (Autonomy) واستخلفه في الأرض .

٢ - وحينما عهد الله تعالى الى الإنسان بهذا المنصب الخطير ، أثبت في قرارة نفسه هذه المعاني ، إني أنا ربك ورب هذا العالم ، وإلهك وإله هذا العالم ، وحاكمك وحاكم هذا العالم . فلا تكن في مملكتي هذه حراً طليقاً تترك رأسك ، ولا تكن عبداً لغيري ، فلا أحد غيري يستحق أن تطيعه وتعبده وتخضع أمامه . وإن الحياة الدنيا التي أعطيت فيها نوعاً من الاستقلال إنما هي فترة امتحان

ترجع إلي بعد انتهائها فأفحص ما عملت فيها ، وأفصل في أمر من نجح ومن رسب . وأصحّ منهج تختاره في هذه الدنيا : أن تتخذني إلهك الواحد وحاكمك الفرد ، وتعمل حسب ما أنزل من هدى ، وأن تعيش وأنت تشعر بأن الدنيا دار للامتحان ، وأن غرضك الحقيقي هو أن تنجح في الآخرة . وعليك أن تعلم أيضاً أن كل منهج يخالف هذا المنهج هو خطل وخطأ . وأنت إن اتبعت المنهج الأول (وأنت حر في أن تتبعه) فلن تتمتع في الدنيا فحسب بالأمن والاطمئنان ، بل سأنعم عليك حين ترجع اليّ ، بدار اسمها الجنة « تجد فيها نعيماً مقيماً وراحة أبدية ، ولا يمسك فيها نصب ولا لغوب . وإن سلكت منهجاً آخر غير هذا المنهج (وأنت حر في إن تسلكه) فلن تذوق في الدنيا فحسب وبال الفساد والقلق والدمار ، بل حينما تعبر هذا العالم إلى عالم الآخرة سيكون مصيرك إلى هاوية النار فيها عذاب خالد وألم دائم وغم أبدي .

٣ - أسكن الله مالك الكون النوع البشري في الأرض بعد أن ثبت في قرارة نفسه المعاني السابقة . كما أنه جلّ

شأنه أتى الإنسان الأول وزوجه - آدم وحواء عليهما السلام - هدى من عنده ليتبعاه، هما وذريتهما في الأرض. ولم يخلق الإنسان الأول في حالة الجهل والظلام. بل إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم وحواء ليبدأ حياتهما في الأرض على حالة من النور والعلم. فكان الإنسان الأول يعرف ما هو الحق، ويعلم ما ينبغي له علمه من قانون للحياة. وكان منهجه في الحياة طاعة الله (أي الإسلام). ووصى بدوره ذريته بأن لا يطيعوا إلا الله ولا يموتوا إلا وهم مسلمون. إلا أن الإنسان قد حاد عن المنهج الصحيح (أي الدين القيم) في القرون المتعاقبة رويداً رويداً، وأتبع السبل المعوجة والمناهج المنحرفة المتضاربة. وضلَّ عن الطريق السوي بعدم المبالاة به مرة وبمسخه بجحود ومكابرة مرة أخرى. فأشرك بالله في ذاته وصفاته ذواتاً عديدة من السماء والأرض، وهمية ومادية، بشرية وغير بشرية. وخلط أنواعاً من الأوهام وضروباً من النظريات وألواناً من الفلسفات بنبع طاهر من العلم (أي علم الحق) الذي آتاه الله، وصنع من ذلك مذاهب لا عدل لها ولا حصر، ونبذ وراء ظهره ما قرره الله من مبادئ عادلة للأخلاق والمدنية

(أي الشريعة) أو مسخها . ثم وضع كما أوحى له هـواه
وعصبيته نظماً ومناهج للحياة ملأت أرض الله ظلماً
وفساداً وبوراً وشقاء .

٤ - إن الله الذي أعطى الإنسان ذلك الاستقلال
المحدود ، لم يتدخل - بصفة كونه تعالى خالقاً - في ردّ من
ضلّ وغوى من الناس إلى المنهج الصحيح بالقهر والقسر .
كما أن المهلة التي منحها الله للإنسان ليعمل في الدنيا
بجريّة ، لم يكن ليناسبها أن يأخذها ويهلكه بمجرد شقّه
عصا طاعته واتباعه طريق البغي . ثم إن الله سبحانه
وتعالى قد أوجب على نفسه منذ بدء الخليقة أن يدبّر
للإنسان طرق هدايته مع إقرار استقلاله في فترة المهلة التي
أعطاه إياها ، وتحقيقاً لما أوجبه الله تعالى على نفسه بإرادته
المطلقة ، اصطفى الله من النوع البشري رجالاً آمنوا به
وابتغوا مرضاته ، واتخذهم مبعوثين له ، وأوحى إليهم علم
الحق ، وأنزل عليهم منهجاً صحيحاً للحياة ، وأمرهم بأن
يدعوا الناس إلى الصراط المستقيم الذي عدلوا عنه .

٥ - بعث هؤلاء الرسل إلى مختلف الأمم ومختلف

الأقطار ، واستمرت سلسلة بعثهم آلافاً من السنين، وكانوا
آلافاً مؤلفة. وكانوا على دين واحد أي نفس المنهج الصحيح
الذي علمه الله الانسان منذ هبط الى الأرض . وكانوا
يتبعون هدياً واحداً ، اي نفس المبادئ الخالدة العادلة
للأخلاق والمدنية التي قررها الله تعالى للانسان في بداية
الأمر . وكانوا يرمون الى غرض واحد اي دعوة النوع
البشري الى دين الله وهدايته . ثم إن الذين قبلوا دعوتهم
نظّمهم وجعلوهم أمة واحدة ، تتبع احكام ربها وتطيع
المنهج الإلهي في الدنيا ، وتسعى لمنع الناس من مخالفة هذا
المنهج . ان رسل الله قاموا بتحقيق ما أرسلوا به على أكمل
وجه. إلا أن الذي حصل على مدار التاريخ هو انه لم يلتفت
العدد الكثير من الناس الى دعوتهم . كما أن الذين آمنوا
بدعوتهم واتبعوهم وأصبحوا أمة مسلمة قد أخذوا في الفساد
والضلال على مر الأيام وكر الليالي . فمنهم من ضل عن
الحق كل الضلال، ومنهم من مسخ تعاليم الله وحرّف الكلم
عن مواضعه وكتب فيها بيده .

٦- وأخيراً بعث الله محمداً ﷺ في أرض العرب

بنفس المهمة التي بعث بها من سبق من الأنبياء والرسل .
فكانت دعوته ﷺ لكافة الناس بما فيهم أتباع الأنبياء
الذين خلوا من قبله . كانت مهمته ﷺ دعوة الناس كافة
الى المنهج الصحيح ، وتبليغهم هداية الله من جديد ، وجعل
من آمنوا بهذه الدعوة أمة واحدة ، تقيم نظام حياتها على
هدى من الله ثم تخرج لهداية الدنيا واصلاحها . وان هذا
القرآن هو كتاب الدعوة وسفر الهداية الذي أنزله الله تعالى
على محمد ﷺ ، فيه هدى ونور ، يهدي به من يشاء من
عباده .

موضوع القرآن وبجته الرئيسي وهدفه :

والآن وقد عرف القارئ « أصل » القرآن ، يمكنه أن
يفهم ما هو موضوع هذا الكتاب ، وما هو بجته الرئيسي ،
وما هو هدفه المنشود :

فموضوعه « الإنسان » : ما هو مدار نجاحه وسعادته
وما هو مدار خسارته وشقائه .

وبجته الرئيسي : أن النظريات التي وضعها الإنسان

عن نفسه وعن الحياة الدنيا وعن نظام الكون وعن ذات الإله ، مدفوعاً بدراسته السطحية وتقديراته الخيالية وخضوعه لسلطان الأهواء ، ثم المواقف التي اتخذها على أساس تلك النظريات ، فإنها كلها في حقيقتها باطلة ومهلكة للإنسان نفسه من ناحية المصير . وإنما الحق هو الذي علمه الله الإنسان حين جعله خليفة له في الأرض . وبموجب ذلك الحق ليس من منهج من المناهج يقوم على الصحة ويتوصل الى العاقبة الحسنة إلا المنهج الذي ذكرناه فيما سبق وسميناه : « المنهج الصحيح » .

وهدفه : دعوة الإنسان الى هذا المنهج الصحيح ، وتبيان لهدي الله الذي ضل عنه الإنسان بعدم المبالاة ، أو شؤّه بدافع من غروره ومكابرته .

والذي يدرس القرآن واطعاً هذه النقاط الثلاث الأساسية أمام عينيه يتبين له بدون ما غموض ، أن هذا الكتاب لم يحد عن موضوعه وبحثه الرئيسي وهدفه المنشود ، حتى ولا قيد شعرة . وتجد مباحثه المنوعة تلتئم مع بحثه الرئيسي إلتئام الدرر الملوثة الصغيرة والكبيرة في

سمط القلادة السندسي . إنه يحدث عن السماء كيف صنعت ، وعن الانسان كيف خلق ، وعن المشاهدات في آثار الكون ، وعن الأمم الحالية وقصصها . إنه ينتقد أعمال مختلف الأمم وسلوكها وعقائدها . إنه يوضح الشؤون والمسائل التي هي وراء الطبيعة . إنه يتناول أموراً كثيرة غير ما ذكرنا . لا ليدرس الإنسان علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو أي فن من الفنون أو أدب من الآداب ، بل لكي يزيل ما عليه الناس من خطأ وسوء فهم عن الحق ، ويقرر في أذهانهم الحقيقة الواقعية ، ويشعرهم بما يؤدي إليه المنهج الذي يخالف الحق من مصير بئس وعاقبة وخيمة ، ويدعوهم الى المنهج الذي يلائم الحق ويأخذهم الى حسن المآب . ولهذا السبب نفسه هو لا يحدث عن كل هذه الأمور إلا في أسلوب يتناسب مع هدفه ، والى حد يلزم له . ومن دأبه أنه يذكر هذه الأمور بقدر الحاجة ثم يعود الى بيان هدفه وبجته الرئيسي بغض النظر عن التفاصيل التي لا علاقة لها بالبحث . ولذلك ترى حديثه يدور حول « الدعوة » بدون التواء وبكل اتزان .

غير أنه من الصعب على الانسان أن يفهم الأسلوب
البياني للقرآن وترتيبه وأكثر مباحثه ما دام لا يعرف
كيفية نزوله .

مراحل نزول القرآن :

ليس القرآن بكتاب أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم جملة
واحده ثم أمره بنشره ودعوة الناس الى ما فيه من منهج
خاص للحياه البشرية . كما أنه ليس بكتاب عرض فيه
موضوعه وبجته الرئيسي على غرار أسلوب التأليف الشائع .
ولأجل ذلك لا تجد فيه الترتيب الذي هو من شأن المؤلفات
الانسانية ، ولا الأسلوب البياني الذي هو من شأن كتب
الدنيا . هذا الكتاب في حقيقة الأمر من نوع فريد ..

المرحلة الاولى :

وقصته أن الله تعالى قد اصطفى عبداً من عباده في
مكة - إحدى مدن جزيرة العرب - لرسالته ، وأمره أن
يبدأ بدعوته في مدينته وفي عشيرته (قريش) ، وقد لقنه

التعاليم التي لا بد منها للشروع في هذه المهمة . وهذه التعاليم
الابتدائية كانت في معظمها تحتوي على ثلاث نواح :

أولاً : تعليم الرسول كيف يعدّ نفسه لتحقيق هذا
الأمر الجليل وعلى أي طراز يسعى سعيه .

ثانياً : المعلومات الأولية عن الحق ، والرد الاجمالي على
ما كان في أذهان الناس الذين يعيشون حوله من مغالطات
وأخطاء عن الحق جعلت منهمجهم في الحياة في عمى
وضلال .

ثالثاً : دعوة الناس الى المنهج الصحيح ، وإيضاح
مبادئ الأخلاق الرئيسية التي يحتضنها الهدى الإلهي والتي
في أتباعها نجاح الانسان وسعادته .

كانت هذه المعاني الأولية تحتوي على شذور موجزة
تناسب مرحلة انطلاق الدعوة في لغتها الرفيعة ، وفي
معانيها السامية ، وفي حلاوتها المتناهية ، وفي تأثيرها البالغ
وهي في أعلى درجات الذوق الأدبي الذي كان يساير مستوى
ذوق المخاطب لتنتطب هذه الشذور الزمردية من النغم

الإلهي في قلوب القوم انطباع السهم في الصدور . ولتميل إليها الآذان مستجيبة لترنمها الساحر ، ولتجري الألسن بترديدها لما فيها من جمال التناسب وحلاوة التنسيق .

ثم إن هذه الشذور كانت مصطبغة بصبغة الأوضاع المحلية الى حد كبير . وإن كان الحديث فيها يدور حول الحقائق الكونية الخالدة ولكن الدلائل التي كانت تساق لها ، والشواهد التي كانت تشير إليها ، والنظائر التي كانت تؤتى بها ، كانت تلتقط كلها من البيئة المجاورة المألوفة للناس . فما جاء فيها من التاريخ فهو تاريخهم ، وما قص فيها من الأحداث فهي أحداثهم وتقاليدهم ، وما ذكر فيها من الآثار فهي مما كانوا يشاهدونه بأعينهم ، وما رُدد فيها من القول فهو عن مفاسدهم العقائدية ، ومساوئهم الخلقية ، وعيوبهم الاجتماعية . وذلك لكي تصير هذه الدعوة أوقع في نفوسهم وأقرب الى أذهانهم .

استغرقت هذه المرحلة الابتدائية من الدعوة حوالي أربع أو خمس سنوات . ورد الفعل الذي ظهر في هذه المرحلة من دعوة النبي ﷺ كان يتجلى في ثلاثة أشكال :

١ - آمن جماعة من خيار الناس بهذه الدعوة الكريمة
واستعدوا ليكونوا أمة مسلمة .

٢ - نهض العدد الكبير من الناس يناوئون هذه
الدعوة ، إما لجهلهم أو انجرافهم وراء الأهواء
والأغراض أو ولوعهم بما وجدوا عليه آباءهم .

٣ - بدأت هذه الدعوة الجديدة تتعدى حدود مكة
وأهلها من قريش وتنتشر في نطاق أوسع نسبياً .

المرحلة الثانية :

ثم بدأت المرحلة الثانية من الدعوة . وقد نشأ في هذه
المرحلة صراع عنيف بين الحركة الإسلامية وبين الجاهلية
السائدة ، وامتدت سلسلته قرابة ثماني أو تسع سنوات ، لا
في مكة فحسب أو بين قريش فحسب ، بل كل من كان
يزيد بقاء الجاهلية الأولى في معظم أقطار جزيرة العرب ،
شمّر عن ساقه وكشّر عن أنيابه للقضاء على هذه الحركة بما
يملك من قوة .

استخدم المعارضون جميع الوسائل والمكاييد لقمع هذه الدعوة ؛ قاموا بدعاية كاذبة ، وألقوا بوابل من الاتهامات والشبهات والاعتراضات ، وقذفوا الوسوس المنوعة في قلوب الناس ، وحاولوا صدّ الذين كانوا يجهلون أمر النبي عن استماع ما يقوله ، وانهاوا على الذين آمنوا بالله ورسوله بالوان من الظلم وأنواع من التنكيل ، وقاطعوهم مقاطعة اقتصادية ، ونغصوا عليهم العيش حتى اضطر كثير منهم الى الهجرة من ديارهم الى بلاد الحبشة مرتين . وآخر الأمر هاجر جميعهم الى يثرب (المدينة المنورة) . وعلى رغم هذه المعارضة الشديدة والتي كانت في ازدياد مستمر ، بقيت الحركة في انتشار وازدهار . ولم يكن بيت من بيوت مكة إلا وقد آمن فرد من أفرادها . وكان مما يزيد المعارضين عداً وحنقاً لهذه الحركة أن أصبح أشقاؤهم وأحفادهم وأبنائهم وأخواتهم وأزواج أخواتهم يتبعون دين الله . وليس ذلك فحسب ، بل أصبحوا يسترخصون كل نفس ونفيس في سبيله ثم نهضوا يقاتلون ذوي قرباهم .

ومن الطريف أن الذين كانوا يقطعون صلّتهم بالجاهلية الأولى وينضمون إلى هذه الحركة الناشئة كانوا ممن يعتبرون خيار مجتمعهم وزبدة قومهم ، وحينما كانوا ينخرطون في سلك الدعوة الجديدة كانوا يبلغون في صلاحهم وصدقهم واستقامة أخلاقهم الشأ والبعد ، حيث لم تتمالك الدنيا إلا الإقتناع بسمو الدعوة التي كانت تستميلهم بشدة ثم تصنع منها ما تصنع .

وفي غضون هذا الصراع العنيف الطويل ، كان الله تعالى ينزل على نبيه بحسب المناسبات واقتضاء الحاجة ، كلمات (آيات) هيّاجة في جريانها كالنهر الجاري وفي قوتها كالفيضان الهائل وفي تأثيرها كالنار المضطربة . وفي هذه (الآيات) أخبر المؤمنون بواجباتهم الابتدائية ، وبعث فيهم الوعي الجماعي الحركي ، وعلموا الورع والتقوى ومكارم الأخلاق وطهارة السلوك ، ولقنوا مناهج تبليغ الدين القيم وطرق إقامته ، وشجعوا على مواصلة الدعوة بوعد غير مكذوب بالفوز بالجنة التي فيها نعيم مقيم . واستحثوا على الجهاد في سبيل الله بصبر

واستقامة ومعنوية عالية . وُعِبَّت قلوبهم بشوق دافق الى
جنة عرضها السماوات والأرض ، ومُلئوا بحماسة دفعتهم
الى مواجهة أقسى محنة والوقوف في وجه أعتى عاصفة من
المعارضة .

هذا في جانب المؤمنين ، وفي الجانب الآخر أنذر
الذين كفروا بالله وتمردوا على رسوله ، وحاربوا دعوتَه
وأعرضوا عن الحق ، بما صارت إليه الأمم التي خلت من
قبلهم وكانوا يعرفون قصصها وتاريخها . ودعوا للاعتبار
بآثار المؤتفكات التي كانوا يرون على أنقاضها مصبحين
وممسين أثناء أسفارهم . وعرضت عليهم أدلة التوحيد
والآخرة المستندة على الآيات التي كانوا يشاهدونها في
خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وكانوا
يرونها ويشعرون بها في أنفسهم وفي حياتهم في كل آن .
كما بين لهم بطلان موقف الإشراك بالله والادعاء بالاستقلال
المطلق ، وجحود الآخرة والإصرار على اتباع ما وجدوا
عليه آباءهم ، بدلائل ناصعة تستقر في القلوب وتنفذ الى
الأعماق البعيدة من العقول . وأزيلت آخر شبهة عالقة

بأذهانهم عن صحة الدعوة ، وردّ آخر اعتراض منهم برد معقول ، وُحل آخر تعقيد ذهني كانوا قد وقعوا فيه أو كانوا يقعون غيرهم فيه .

وخلاصة القول أن الجاهلية حوصرت من كل جهة وضيق عليها خناقها بشكل لم تبق لها معه أية مكانة في عالم العقل والحصافة والجدية . ثم أنذروا - مع ذلك - بغضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب جهنم ، ووبّخوا على ما كانوا عليه من رذالة الأخلاق، ومنهج الحياة الباطل، وتقاليد الجاهلية، ومعاداة الحق وإيذاء المؤمنين، وعرضت عليهم المبادئ الأساسية للأخلاق والمدنية التي نشأت عليها - وستنشأ - حضارات صالحة طاهرة في العالم كسبت رضى الله في كل دور من أدوار التاريخ البشري .

هذه المرحلة نفسها كانت تحتوي على عدة مراحل جزئية ، وفي كل من هذه المراحل ظلت الدعوة تتوسع ويمتد نطاقها . وبالتالي ظلّ النضال يشتد، ونار المعارضة تتسعّر . وظلت الدعوة تواجه كل يوم شكلاً جديداً من العقائد والأفكار وتناضل نوعاً جديداً من الفئات المختلفة

في أخلاقها ومواقفها . ومن ثم فإن آيات الله كذلك زادت تنوعاً في بحشها وتلوّثاً في عرضها . وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المكي .

المرحلة الثالثة :

مضت على هذه الحركة ثلاثة عشر عاماً تكافح وتجاهد . وإذا بها تفوز بمقر^ه لها في يثرب (المدينة المنورة) ودعت اتباعها من أنحاء جزيرة العرب الى هذا المقر ، لتكوّن مجتمعاً مستقلاً وتستجمع طاقاتها في مركز واحد . فهاجر النبي ﷺ ومعظم أصحابه الذين اتبعوه بإحسان الى المدينة المنورة . وبذلك دخلت الدعوة الاسلامية المرحلة الثالثة :

انقلب الوضع في هذه المرحلة رأساً على عقب ، فالأمة المسلمة تمكنت من تأسيس دولة مستقلة ، وبدأ النضال المسلح مع أصحاب الجاهلية القديمة ، وبدأت الدعوة تواجه أمم الأنبياء السالفين (أي الأمة اليهودية والأمة المسيحية) ، كما بدأت تتخلّص كذلك من المنافقين الذين تسربوا الى

الكيان الداخلي للأمة الإسلامية . وبعد مقاسات الصراع العنيف والكفاح المديد عشر سنوات بلغت الحركة الإسلامية في نهاية المطاف من القوة والسلطان درجة أصبح معها العرب كلهم خاضعين مستسلمين . وانفتحت أمامها أبواب بث الدعوة على الصعيد العالمي ، والقيام بحركة إصلاحية عبر الحدود . وقد اشتملت هذه المرحلة أيضاً على عدة مراحل جزئية واجهت الدعوة في كل مرحلة منها حاجات تختص بها . وتحقيقاً لهذه الحاجات أنزل الله على نبيه ﷺ من الكلمات (الآيات) ما كان أسلوبها يتنوع بتنوع الحاجة . فمرة كان أسلوبها أسلوب الخطاب المجلجل الرنان المتأجج بنار المشاعر ، وأخرى أسلوب الأوامر والمراسيم الملكية ، وثالثة أسلوب دروس المعلم ، ورابعة أسلوب تذكير المصلح الناصح . وجاء فيها كيف ينشأ المجتمع وتؤسس الدولة وتبنى المدينة الصالحة . وعلى أي المبادئ والأنظمة تقام مختلف نواحي الحياة . وبأي طريق يتعامل مع المنافقين ومع أهل الذمة من الكافرين . وعلى أي لون توطد العلاقات مع أهل الكتاب ، وماذا يختار من السلوك مع الأعداء المحاربين والأقوام المعاهدين .

وكيف تعدُّ هذه الجماعة المؤمنة المنظمة نفسها للقيام بمهمة
خلافة الله في الأرض .

هذه الكلمات أو الآيات كانت تقوم بتوجيه المسلمين
وتربيتهم على ما يرام ، وكانت تنبهم على مواطن ضعفهم
وتحرّضهم على أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ،
وتعطيهم دروساً في الأخلاق والسلوك تناسب واقعهم في
الانتصار والهزيمة، وفي المحنة والراحة وفي السراء والضراء
وفي الأمن والخوف وما الى ذلك من حالات . وكانت
تصنع منهم جماعة تتوفر فيهم كفاءة ليخلفوا الرسول صلّى الله عليه
بحق ، ويتابعوا مهمته في الدعوة والاصلاح . هذا في
جانب ، وفي الجانب الآخر كانت هذه (الآيات) تخاطب
الذين حُرِّموا من الإيمان من أهل الكتاب والمشرّكين
والكفار والمنافقين ، وتدعوهم الى الخير وفق حالة كل
منهم وحسب موقف كل منهم من الدعوة وذلك بوسائل
الاقناع وبالقول اللين والموعظة الحسنة ، وبالنصيحة
البالغة ، والتقريع الشديد وبالتخويف من عذاب الله ،
وباستخلاص جوانب العبرة والعظة من الأحداث والأوضاع

المتضمنة للدروس القاسية. وذلك لتقييم عليهم الحجة، وتسد عليهم منافذ الأعدار . وهذا هو السياق التاريخي للقرآن المدني .

القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة :

ويتضح مما ذكرنا آنفاً أن القرآن كان نزوله مقترناً بالدعوة وتطورها وسيرها . فنزلت منه قطع مختلفة ، نجماً نجماً ، وفق حاجات الدعوة المتجددة ومقتضاها الواقعي في كل مراحلها ومنازلها منذ بدايتها حتى اكتمالها . وذلك في فترة استغرقت ثلاثة وعشرين عاماً كاملاً . ومن البديهي إذن أن مثل هذا الكتاب يعوزه الترتيب التألفي من النوع الذي يختاره الطالب في إعداد البحث لأجل الحصول على شهادة الدكتوراه . كما أن القطع المختلفة الأحجام التي كانت نزلت منسجمة مع تطور الدعوة ، ما كانت تنشر في رسائل وكتيبات ، بل كانت تلقى في خطاب من رسول الله ثم تتناقل مشافهة وتبلغ من فرد لفرد . لذلك ما كانت تصاغ على أسلوب التأليف ، بل

كانت تعرض في الأسلوب الخطابي الذي لا ينسج على منوال محاضرات الأستاذ في الجامعة ، بل كان يشابه خطبة الداعية الذي عليه أن يستهدف إثارة العواطف بجانب مناشدته العقول ، وعليه أن يواجه كل نوع من أنواع العقليات ، وعليه أن يعمل لما تقتضيه دعوته وحرركته في ظروف متباينة وأوضاع متضاربة . فمن إقرار الدعوة في سويداء القلوب الى مخاطبة العقول بمختلف النظريات الى استشارة الفيض من الشاعر ، الى كسر شوكة المعارضات ، الى تربية الأتباع وإصلاحهم ، الى نفخ الحماس في نفوسهم ، الى تحويل الأعداء أصدقاء أوفياء ، الى إرغام المنكرين على الإقرار ، إلى دحض حجة الجاحدين وقطع دابر نفوذهم الأدبي . وما الى ذلك من الأمور التي يجب على رائد الدعوة وقائد الحركة أن يقوم بها على أكمل وجه وأوفق منهج .

ونظراً لكل ذلك ، فإن الكلمات (الآيات والسور) التي أنزلها الله على رسوله - ﷺ - فيما يتعلق بمهمته الجليلة كانت في أسلوب خطابها على نفس الأسلوب الذي

يلائم ظروف الدعوة ويناسب واقعها الذي تعيش فيه .
ومن هنا لا يحسن بنا أن نطلب منه الأسلوب الذي يخص
محاضرات الجامعة ودروسها .

سر التكرار في القرآن :

ومن هنا يتضح وضوح الشمس في رابعة النهار ، سرّ
ترديد بيانات القرآن بكثرة . اذ مما تقتضيه طبيعة الدعوة
أن لا تحدث ، إلا بما يناسب المرحلة التي تعيش فيها ؛ وما
دامت تعيش فيها لا تتعرض لحديث يخص المراحل
المقبلة ، بل تظل تردد حديثها عن المرحلة التي هي فيها
ولو استغرقت الشهور أو السنين . وقد تتضجر الطبائع
وتسام الأذن لو بقيت العبارة بعينها تتكرر ، وفي صياغة
واحدة تتردد . لذلك فإن المباحث التي تخص مرحلة من
المراحل وتمس الحاجة الى عرضها مرة بعد أخرى كان
يجب أن تصاغ في كل مرة في ألفاظ مبتكرة وأساليب
ناضرة ومحاسن بيانية غضة طرية ، تشتهيها الأنفس
وتتلقفها القلوب . وبذلك تصبح كل مرحلة من المراحل

متينة القواعد ، محكمة الدعائم ، مستقيمة البناء . ويجب فوق ذلك أن لا يعزب عن البال تلك المبادئ العامة والقواعد التي تعتمد عليها الدعوة في كل حين من الأحيان وفي كل وضع من الأوضاع منذ الخطوة الأولى حتى تمامها وكما لها ، بل لا بد من أن تلفت إليها الأنظار في جميع مراحل الدعوة مهما كان الحال . وهذا هو السر في شمول جميع سور القرآن على موضوعات ثابتة ، ولكن في ألفاظ متجددة وأسلوب متنوع .

فمثلاً ما يتعلق بعقيدة التوحيد ، وصفات الله ، والآخرة ومسؤوليتها وعذابها وثوابها ، والرسالة والإيمان بالكتاب ، وتقوى الله والصبر ، والمصابرة ، والتوكل وما الى ذلك من حقائق أساسية فإنك لترى القرآن يعيد ذكرها ويردد بيانها في جميع سورہ المكية والمدنية ، لأن الحركة لا تستطيع الإغماض عنها أو التساهل فيها في أية مرحلة من مراحلها . ولو كانت هذه العقائد الأساسية وهنت في نفوس المؤمنين لما تقدمت حركة الإسلام بروحها الصحيحة وطبيعتها الفذة .

كيف رتبت آيات القرآن :

وإذا سبرت غور ما سبق قوله لتوصلت الى جواب مقنع على ما يدور في خلدك من سؤال : لماذا لم يجمع النبي ﷺ القرآن حسب ترتيب نزوله عليه ؟

ان القرآن كان ينزل وفق الترتيب الذي سارت عليه الدعوة منذ بدءها حتى بلغت أوج الكمال . ويتضح من ذلك أنه لم يكن من الحكمة في شيء أن يختار لتدوين الأجزاء المنزلة نفس الترتيب الذي كان ملتئماً مع سير الدعوة وتطورها بل الأمر كان بحاجة إلى ترتيب جديد يكون أكثر أنسجاماً وأشد تجانساً وأدق ارتباطاً مع الواقع الآني بعد اكتمال الدعوة وتمام النعمة . لأن المخاطبين الأولين لهذه الدعوة في بداية أمرها كانوا ممن يجهلون الإسلام بالكلية ، فلذلك غشاهم الوحي بأوليات التعليم وبديهيات الإيمان . ثم لما اكتملت الدعوة وبلغت ما شاء الله أن تبلغه أصبح مخاطبوها الأولون من الذين آمنوا بها وكونوا أمة مستقلة ، أصبحوا مسؤولين عن متابعة الدعوة ومواصلة الحركة التي سلمها الرسول ﷺ لهم بعد

كما لها فكرة ومنهاجاً . وهكذا صار الأمر الأهم هو أن يدرك هؤلاء المؤمنون ، قبل غيرهم ، واجباتهم ومناهج حياتهم ، وأن يعرفوا الفتن والأمراض التي ابتليت بها أمة الأنبياء فيما مضى ، قبل أن يتقدموا بهداية الله الى البشرية التي ترزح تحت نير الضلال والغواية والانحراف .

وهناك حقيقة أخرى تتكشف للانسان إذا ما وُفِّق إلى معرفة أسلوب القرآن، وهي أن وضع الآيات المتجانسة في المباحث في موضع واحد لا يوافق طبيعة هذا الكتاب . بل من عين ما تقتضيه طبيعته هو أن يجد القارئ أثناء دراسته للقرآن الآيات المكية (أي التي نزلت في مكة) يتخللها الآيات المدنية (أي التي نزلت في المدينة) والمواظ الإبتدائية تحف بها الوصايا النهائية وتعاليم المرحلة الختامية توأكبها تعاليم المرحلة الإبتدائية وهكذا يلمح أمام عينيه منظر الإسلام الكامل وتخطيطه الشامل مشرقاً متلألئاً بصفة مستمرة ، ولا يبرز له من واجهة بعينها دون غيرها .

لو جمع القرآن على الترتيب الذي نزل عليه لما كان هذا

الترتيب مجدياً ومفهوماً للعصور التي تلت عهد النبوة ، بدون أن يضاف إلى القرآن تاريخ نزوله وتاريخ الظروف التي نزل فيها كل جزء من أجزائه كملحق للقرآن . الأمر الذي كان ينافي الغرض الذي شاء الله لأجله أن يدون كلامه ويحفظ في مصحف . والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلامه خالصاً نقيماً لا يشوبه شائبة من الزيادات ولا يمازجه كلام غيره . يرتب على ما هو عليه من الإيجاز والإعجاز معنى وصورة ، لتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد: الصغير والكبير، الناشئ والكهل، الرجل والمرأة، الرجل العادي والعالم الضليع، في المدن والقرى، في كل زمان ومكان ، في كل حال وواقع . وليدرك جميع الناس على الأقل - مهما اختلفت درجات عقولهم - ماذا يريد الله منهم وماذا لا يريد منهم . ومن الواضح أن لو أضيف إلى القرآن ، تاريخه المطول وجعلت تلاوته أمراً لازماً مع تلاوة القرآن ، لضاع هذا الغرض .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن الذين يعترضون على الترتيب الحالي للقرآن يظنون عن سوء فهم أن هذا الكتاب

قد أنزل إلى طلبة علم التاريخ وعلم الاجتماع .

وفيما يتعلق بترتيب القرآن يجب أن يعرف الدارس كذلك أن الترتيب الحالي ما قام به الذين جاءوا بعد النبي ﷺ ، بل هو توقيفي وضعه النبي ﷺ نفسه بتوقيف من جبريل عليه السلام . وكان من عادته ﷺ أنه كلما نزلت سورة من سور القرآن كان يدعو بعض كتابه وكان يأمر بكتابتها ويأمر بوضعها عقب سورة كذا وقبل سورة كذا ، وكذلك حين ينزل شيء من القرآن (أي آية أو بضع آيات) ولم يرد جعله سورة مستقلة أمر النبي ﷺ بوضعه في موضع كذا من سورة كذا . ووفق هذا الترتيب نفسه كان ﷺ يتلو القرآن في الصلوات وغيرها من المناسبات . ووفق هذا الترتيب نفسه كان أصحابه الكرام يستظهرون القرآن ويتدارسونه . ولهذا كان من الثابت تاريخياً أن اليوم الذي أكمل فيه نزول القرآن أكمل فيه ترتيبه . ومرتبته هو الذي أنزله . والذي أنزل القرآن على قلبه رتب القرآن على لسانه . وما كان لأحد غيره أن يتدخل فيه .

تلوين القرآن :

وبما أن الصلوات كتبت على المسلمين منذ البداية^(١) وتعيّنت قراءة ما تيسر من القرآن فيها . فلذلك بدأت في المسلمين حركة حفظه في الصدور مقرونة بنزوله على صاحب الوحي عليه الصلاة والسلام . وكلما كان ينزل منه شيء كانوا يتلقونه ويستظهرونه عن ظهر غيب . ولم ينحصر حفظه بكتابته في العصب وقطع الأدم وكسر الاكتاف^(٢) التي كان يكتب فيها كتاب النبي ﷺ تحت

(١) وليكن القارىء على ذكر أن الصلوات الخمس كتبت على المسلمين بعد البعثة بسنوات، أما الصلوات كعبادة فقد أمر بها المسلمون منذ اليوم الأول . ولم تمض على الاسلام ساعة لم تكن الصلوات فيها واجبة مطلوبة .

(٢) العصب بضم فسكون وبضمتين ايضاً جمع عسيب : وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض . والأدم بضمتين وبفتحتين ايضاً جمع أديم : وهو الجلد المدبوغ . والاكثاف جمع كتف : وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان .

رعايته ، بل كان يرسم كذلك بمجرد نزوله على العشرات
فالمئات ثم الآلاف فالملايين من الصدور ، ومن هنا ما كان
لباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه ليغير فيه ولو
كلمة .

ولما ظهرت فتنة الردّة بعد وفاة النبي ﷺ قام
الصحابه رضوان الله عليهم بمعارك دامية لقمعها وقطع
دابرها . فاستشهد فيها جماعة كبيرة من قراء الصحابة
الذين كانوا يحفظون القرآن كله . الأمر الذي بعث عمر
رضي الله عنه على القول بأنه لا ينبغي الاعتماد على صورة
واحدة في باب المحافظة على الذكر الحكيم ، بل يجب
الاهتمام بحفظه في قراطيس الصحف مع حفظه في طيات
الصدور . فذكر عمر رضي الله عنه ضرورة هذا الأمر
لأبي بكر رضي الله عنه الذي تردد باديء ذي بدء ، فلم يزل
عمر يراجع حتى شرح الله لذلك صدر أبي بكر . وكلف
زيد بن ثابت الأنصاري الذي كان من كتاب النبي ﷺ
وكان يكتب الوحي أن يتتبع القرآن ويجمعه . والطريقة
التي قررت لاستكمال هذا الأمر الخطير هي أن يجمع كل

ما تركه النبي ﷺ من أجزاء مكتوبة في صحف من الرقاع والجلد ونحوها ، ويؤخذ كذلك ما يوجد عند أي واحد من الصحابة مما كتب من القرآن ، ثم يستعان بحفاظ الصحابة في ضبط المحفوظ . وبناء على شهادة اجماعية من هذه الوسائل الثلاث وبعد التثبت من عدم وجود أية غلطة في المکتوب والمقروء تسجل لفظة لفظة من القرآن . وبموجب هذه الطريقة المحكمة كتبت نسخة من القرآن في الصحف ، وأودعت عند أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها التي كانت تحفظ القرآن كله في صدرها . وأذن لعامة المسلمين أن ينسخوا منها أو يقابلوا ما عندهم من المکتوب عليها .

وكانت لغات القبائل في الجزيرة العربية تختلف بعضها عن بعض في القراءات واللهجات شأن اختلافها باختلاف المدن والمديريات في بلادنا (باكستان) مع أن لسان جميعها واحد أي الارديو أو البنجابي أو البنغالي . والقرآن كان قد نزل بلغة قريش . ولكن أجزء في أول الأمر للقبائل الأخرى أن يقرأ أهل كل قبيلة القرآن

بلغتهم وبما جرت عليه عاداتهم ، لأن ذلك لا يؤدي الى اختلاف معانٍ موجبة لاختلاف أحكامه . بل بذلك يسهل عليهم التلاوة وتلين لهم العبارة . ولما اتسع نطاق الفتوح الاسلامية ، وتعدّى العرب صحاريهم القاحلة ، وفتحوا الأقطار الشاسعة من العالم ، ودخلت الأمم الأخرى في دين الله ، واختلط العرب بالعجم ، وتأثرت بذلك الاختلاط لغتهم ، خشى الناس حدوث أنواع من الفتن لو استمر الناس على تلاوة القرآن بلهجاتهم وعاداتهم التي درجوا عليها ، كأن يسمع أحدهم غيره يقرأ كتاب الله بلغة لم يالفها هو فيظنه يحرف القرآن متعمداً ، فيكفره ويقتتل معه . أو يتدرج اختلاف الألفاظ والتلاوة الى فتح باب التحريف والتصحيف أو أن تفسد لغة بعض العرب باختلاطهم مع العجم فيصرفون القرآن على لغتهم الفاسدة ويشوهون بديع كلامه ورونق قراءته .

وحرصاً على إبعاد المسلمين عن تلك الفتن قرر عثمان رضي الله عنه على مشورة من أصحاب الرسول ﷺ ، أن تنسخ المصاحف من الصحف المعتمد عليها والتي ضبطت

في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، وتفرق في البلاد الإسلامية
ويمنع من التداول ما سواه من القرآن المكتوب بقراءة
أخرى أو لهجة مخالفة. ففعل عثمان ذلك وعهد الى جماعة من
الصحابة بجمعها في مصحف واحد ، وكتب منه نسخاً
كثيرة وزعت على الأمصار ، وبعث مع كل مصحف من
يرشد الناس الى قراءته .

إن المصحف الذي بين أيدينا اليوم هو على طبق رسم
مصحف الصديق الذي نسخ منه عثمان رضي الله عنه نسخاً
عديدة تحت إشرافه ، وفرق منها في المدن والأمصار . ولا
تزال هذه النسخ المعتمد عليها محفوظة بعدد من الاماكن
في الدنيا . والذي يشك في « تمام حفظ » الذكر الحكيم فله
أن يشتري نسخة من المصحف الكريم من مكتبة في إفريقية
الغربية ويقابله بسماعه مشافهة من أحد الحفاظ في جاوا ،
ثم يقابله بما في المكتبات الكبيرة في العالم من المصاحف
الأثرية التي كتبت في مختلف القرون منذ عهد سيدنا عثمان
رضي الله عنه الى يومنا هذا . فاذا وجد فيه فرقاً ولو في
كلمة من الكلمات أو في حركة من الحركات فمن واجبه

أن يطلع على الدنيا بهذا « الاكتشاف التاريخي المدهش » .

وللمرتاب أن يرتاب في كون القرآن منزلاً من الله تعالى إن شاء . أما كون ما بأيدينا اليوم من القرآن هو عين القرآن بنصه وفضة الذي أنزل على محمد ﷺ وأقرأه الناس فهذه ظاهرة تاريخية لا مجال للشك والارتياب فيها . لا تجد شيئاً مما توارثته الدنيا في التاريخ البشري الطويل يكون على ما عليه القرآن من الثبوت القطعي المحتوم . ومن يشك في صحته فقد يشك أيضاً في ظهور الامبراطورية الرومانية على الأرض المعمورة في عصر من عصور التاريخ ، أو في الحكم المغولي في الهند قبل قرون ، أو في وجود شخصية « نابليون » وإبداء الشك في ظواهر تاريخية كهذه ليس من خصائص العلم والمعرفة وإنما هو من أمارات الجهالة والغباوة .

منهج لدراسة القرآن :

إن القرآن كتاب يرد على منهله الفياض عدد لا يحصى من الناس لأجل عدد لا يحصى من الأغراض . لذلك يتعذر

عليّ أن أقدم للدارس مقترحاتي في صدد دراسة للقرآن
تستهدف تحقيق مطالب وأغراض هذا العدد الهائل من
الواردين عليه . ولا يجذبني من هذه الكتل البشرية إلا
الذين أشم فيهم رائحة الحرص على فهم هذا الكتاب ومعرفة
مطالبه وتوجيهاته في شؤون الحياة الانسانية ومسائلها
المعقدة . فأحب أن أعرف هؤلاء منهجاً لدراسة القرآن ،
ثم أشاطرهم حل المشكلات والمصاعب التي يواجهها كل
دارس بصفة عامة .

يجب - كخطوة أولى - على كل من يريد فهم القرآن،
سواء آمن به أو لم يؤمن أن يخلي ذهنه ما أمكن من جميع
ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات، ويظهره
من سائر ما يكتنه من الرغبات الموالية أو المناوئة ، ثم
يكبّ على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وقصد نزيه
لفهمه . أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات
في أذهانهم مقدماً فما يقرؤون بين دفتيه إلا تصوراتهم
أنفسهم . ولا يجدون شيئاً من رائحة القرآن . ولا يصلح
هذا المنهج لدراسة أي كتاب من الكتب فكيف بالقرآن

الذي لا يفتح كنوز معانيه أبداً للذين يدرسونه باتباع مثل هذا المنهج .

منهج الدراسة التفصيلية الشاملة :

ثم إن الذي لا يريد من القرآن إلا معرفة إجمالية فعسى أن يكفيه دراسته مرة أو مرتين . أما الذي يريد أن يغوص في أعماقه ، ويدرك أسرارها فلا يكفيه أن يدرسه أربع أو خمس مرات . وعليه أن يفزع إليه تكررأ ومرارأ ، ويُقبل على دراسته إقبالا لا ملل فيه ولا كلل ، وأن يدرسه كل مرة من وجهة جديدة ، وأن يأخذ معه - كطلب من الطلبة - الأدوات اللازمة من الدفتر والقلم ليسجل ما يعن له من نقاط هامة خلال الدراسة . والذين يرغبون في دراسته على نهج قويم كما قلنا ، عليهم أن يستوعبوا قراءته في ختمتين لمجرد أن يلمع أمامهم نظامه للعقيدة ومنهج العام الذي يفاصل الدنيا عليه . كما عليهم أن يحاولوا خلال الدراسة الأولية تحقيق النظرة الإجمالية في مشاهد القرآن العامة ويتمينوا التصورات الأصلية التي

يقدمها للناس ومعالم نظام الحياة التي يبينها على أساس هذه التصورات . وفي خلال هذه الرحلة الممتعة اذا خطر في ذهنهم سؤال فلا يستعجلون البت في شأنه بل يقيّدونه في مذكرة ، ويواصلون مطالعتهم ملتزمين جانب الصبر والجد ، فهم سوف يعثرون غالباً على الجواب فيما يقبل من الصفحات . واذا عثروا عليه قيّدوه كذلك في المذكرة أمام السؤال . وإذا لم يظفروا بالجواب خلال الدراسة الأولية يستأنفون دراسته كجولة ثانية ويكون الصبر حليفهم والتأني دثارهم . وأقول بناء على تجاربي : لا يكون من سؤال إلا وتجدون جوابه ، وما من معضلة الا وتبلغون حلها في دراستكم العميقة الثانية . اللهم إلا في الندرة النادرة التي تتقاصر عنها أفهام الرجال .

هذا ، وبعد تحقق النظر الإجمالي الشامل في القرآن على ما أشرنا ، على الدارس أن يبدأ بدراسة تفصيلية للقرآن . وفي هذا الصدد يجب عليه أن يثبت في قرارة ذهنه كل ناحية من تعاليم القرآن التي يربها أثناء الدراسة ، فيحاول - مثلاً - أن يعرف ما هو المثل الانساني الأعلى

الذي يحبه القرآن ، وما هو النموذج الانساني الذي يكرهه
ويبغضه . وتحقيقاً لهذا المطلب يسجل في مذكرته خصال
« الانسان المطلوب » في نظر القرآن في عمود ، وخصال
« الانسان المرفوض » في نظره في عمود مماثل وجهاً لوجه .
كما يحاول أن يعرف - كمثال آخر - موجبات نجاح
الانسان وسعادته حسب مقياس القرآن ، والأسباب التي
يعتبرها مبعث الهلاك والدمار ومدعاة الخسران والشقاء .
وأصح طريقة لمعرفة هذا المطلب أيضاً ، بأبعاده الشاسعة
وتفاصيله الشاملة ، أن يقيم في مذكرته عمودين مماثلين :
أحدهما لموجبات السعادة ، والثاني لموجبات الخسران ،
ويسجل كل ما يصل اليه في هذا الموضوع . وقياساً على
ذلك ينبغي له أن يقيّد حسب ما ذكرنا جميع تعاليم القرآن
الحكيم في كل مسألة من مسائل الحياة من العقائد والأخلاق
والحقوق والواجبات ، والاجتماع والمدنية ، والاقتصاد
والسياسة ، والتشريع ونظام الجماعة ، والحرب والمهادنة
وما الى ذلك ، لكي يستبين على أي شكل تتكون كل
شعبة من شعب الحياة ، ثم على أي شكل تتكون الحياة
الاسلامية بعد توحيد هذه الشعب وتكليفها في الاطار العام .

منهج دراسة مسألة بعينها :

ثم إذا أراد الانسان أن يتبين وجهة نظر القرآن في مسألة من مسائل الحياة فيستحسن له أن يطالع ما كتب فيها قديماً وحديثاً بكل إمعان ، ويحدد بوضوح ما لهذه المسألة من نواح أساسية ونقاط رئيسية ، ويتعرف كذلك ما هو مبلغ تفكير الانسان ومدى ما وصل إليه في هذه المسألة عبر التاريخ ، وما هي جوانبها التي تتطلب حلولاً ، وما هي النقطة التي لم يستطع التفكير الإنساني تخطيها حتى اليوم . وإذا حقق ذلك ، فله أن يدرس القرآن وازعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب الحلول في هذه المسألة . ومما جرت به أن الإنسان إذا درس القرآن باحثاً في مسألة من المسائل على نحو ما ذكرت ، فإنه يفاجأ بالردود على أسئلته في آيات قد قرأها عشرات المرات من قبل ولم يخطر بباله أن تلك الآيات تكمن فيها هذه الردود .

شروط أساسية لدارس القرآن :

ومهما يتخذ الإنسان من التدابير ويستخدم من

الوسائل لفهم القرآن فإنه لا يصل إلى جوهر القرآن وروحه كما ينبغي ، ما دام هو لا يعمل وفق ما جاء به القرآن .

إن القرآن ليس يحوي نظريات مجردة وأفكاراً محضة حتى تدرسه جالساً على الأريكة ثم تفهم جميع مطالبه . كما أنه ليس بكتاب يبحث في اللاهوت فتحل جميع أسراره ومكنوناته في المعاهد والزوايا . إن هذا الكتاب ، كما قلنا في مستهل المقدمة كتاب دعوة وحرارة . وبمجرد نزوله أخرج رجلاً وادعاً دمثاً ، سليم الفطرة كريم الشيم ومحب لسكوت ، من زوايا الانعزال ، وأوقفه في مواجهة العالم الذي كان قد انصرف عن الحق ، وجعله يقارع الباطل ويحارب أئمة الكفر وقادة الفسق ورواد الضلال . إن هذا الكتاب انتزع كل روح سعيدة وكل نفس زكية من كل بيت وجمعها تحت لواء صاحب الدعوة . إن هذا الكتاب أخرج غيظ كل فتان مفسد وجعله يقاتل أنصار الدعوة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة .

إن هذا الكتاب هو الذي قام بتوجيه الحركة الإسلامية الهائلة خلال مدة ثلاثة وعشرين سنة، والتي بدأت عملها من صرخة فرد واحد وانتهت في نهاية المطاف إلى إقامة الخلافة الإلهية في الأرض. وهذا الكتاب هو الذي تولى وضع مخططات الهدم ومشاريع البناء في كل مرحلة من المراحل وفي كل خطوة من الخطوات خلال المعركة المديدة الضارية بين الحق والباطل.

إذن فكيف يتأتى لك اليوم أن يتجلى لك جميع ما يضم هذا الكتاب من أسرار وحقائق بمجرد أن تمر على حروفه وتنطق بكلماته، وبدون أن تنزل إلى ميدان الصراع بين الدين والكفر، وتغير قدميك في معركة الإسلام والجاهلية وبدون أن يصادفك المرور بمنزل من منازل هذا الكفاح.

لا تستطيع أن تفهم مطالب القرآن ومعانيه البعيدة الغور إلا حين تحمّ هذا الكتاب وتبدأ بالدعوة إلى الله وتخطو جميع خطواتك كما يوجهك وكيفما يعلمك.

ومن هنا لا بد أن يستقبلك جميع ما استقبل حامليه من
التجارب والمحن : تشاهد مشاهد مكة والحبشة والطائف ،
وتواجه المراحل الممتدة من بدر الى حنين الى تبوك ،
وتتشابك مع « أبي جهل » و « أبي لهب » وتلاقي المنافقين
واليهود ، وترى وتختبر كذلك كل النماذج الانسانية
ماراً بالسابقين الأولين الى المؤلفة قلوبهم . فهذا سلوك فريد
لا يماثله أي نوع من السلوك ، وأسميه « السلوك القرآني »
ومن شأنه أنه كلما مررت بمنزل من منازل تطالعك آيات
وسور من القرآن تحيطك علماً بأن هذا هو المهبط الذي
نزلت فيه ، وجاءت فيه بكذا من التوجيهات والتعاليم .
وفي ذلك الحين لا يستبعد أن يغيب عن نظر « السالك »
شيء من اسرار اللغة والبلاغة والمعاني والبيان . إلا أنه
يستحيل أن يرضن القرآن بالكشف عن جوهره وروحه
أمام ذلك « السالك » .

ووفقاً لنفس المبدأ لا يستطيع الانسان أن يدرك
مغزى أحكام القرآن وتعاليمه الخلقية وتوجيهاته
الاقتصادية والمدنية ومبادئه ونظمه في مختلف نواحي

الحياة ما دام لا يطبقها في الحياة ، لا يدرك مغزاها فرد يعيش في حل منها في حياته الفردية ولا تدركه أمة تسلك جميع مؤسساتها الاجتماعية مسلكتاً يخالف منهجها .

القرآن كتاب هداية للبشرية كافة :

وكل رجل شريفاً كان أو وضيعاً يعلم أن القرآن أعلن انه جاء لهداية النوع البشري باجمعه . ولكن اذا تناوله أحد ليدرسه يرى أنه لا يخاطب إلا من وجد من العرب حين نزوله . واذا كان يدير وجهه أحياناً الى كافة الناس فإن معظم ما يقول يرجع الى ما يختص بذوق العرب وخدمهم وبيئتهم وخدمهم وتاريخهم وتقاليدهم وخدمهم . والانسان حين يرى ذلك يبدأ يتساءل : إن كان الكتاب الذي أنزل لهداية كافة البشر لماذا يعنى عناية كبيرة بعناصر وقتية ومحلية وقومية ؟ بل يقع بعض الذين يجهلون حقيقة الأمر في شك ويقولون : ربما نزل هذا الكتاب لاستصلاح من يعاصره من العرب ثم حمل فيما بعد ما لا يحتمله من دعوة عالمية وهداية لكافة الناس الى

الأبد .

وأقول للذي أثار هذا الاعتراض لا لمجرد الاعتراض ، بل أراد معرفة الحقيقة : ينبغي أن يدرس هذا الكتاب ويخط تحت النصوص التي دعا فيها القرآن الى عقيدة أو فكرة أو تصور ، أو عرض فيها مبدأ في الأخلاق أو قاعدة في الحياة العملية تختص بالعرب وحدهم ، وتنحصر بحكم الزمان والمكان في حدود لا تتعدها !! اما مجرد كونه يخاطب أناساً عاشوا في زمان بعينه ، ويتناول ما حولهم من الموجودات كمواد للاستشهاد يبنى عليها دلائل التوحيد فهذا وحده لا يكفي لأن يحكم بأن دعوته كانت تختص بزمن دون الأزمان ونداءه كان موجهاً الى قطر دون الأقطار . وبدلاً من ذلك ينبغي أن يتبين مشير الاعتراض أن الذي جاء به القرآن في رفضه لعقيدة الشرك يصدق على كل نوع من الشرك في الدنيا كما صدق على شرك العرب .

ألا يحسن بنا بعد ذلك أن نلجأ في استصلاح عقائد

المشركين في كل عصر ومصر الى نفس الدلائل والحجج التي جاء بها القرآن ؟ ألا يجوز أن نستعمل أسلوب القرآن فيما يستدل به على إثبات التوحيد في كل زمان ومكان بعد تعديل يسير ؟

إذا كان الجواب نعم فليس من مبرر للقول بأن دعوة القرآن الخالدة العالمية دعوة آنية ومحلية استناداً الى انها عرضت على قوم بأعينهم في زمن بعينه . وما من فلسفة أو نظام للحياة أو مذهب من المذاهب عرضت جميع تفصيلاته من الألف الى الياء في أسلوب نظري محض (Abstract) ولم تتمثل في أوضاع واقعية أو صور حية .

هذا النوع من التجريد لا يمكن أن يوجد في عالم النظريات . وإن افترضنا وجوده فإن النظرية التي تعرض على هذه الصورة من التجريد لا تعدو حبراً على الورق ويستحيل أن تنساب في حياة الناس وتتحول الى نظام عملي .

ثم إذا أريد تعميم حركة عقائدية وخلقية ومدنية
على صعيد عالمي فلا يلزم لذلك أبداً أن تجعل الدعوة عالمية
من البداية . بل المنهج الصحيح الوحيد لذلك هو أن
تنشر الحركة ما تدعو إليه من عقائد ونظريات ومبادئ
في البلد الذي نشأت فيه ، وأن تقرها في أذهان أناس يعرف
القائمون بالحركة لغتهم وطبيعتهم وعاداتهم وتقاليدهم ،
وأن تطبقها في الحياة العملية وتقيم عليها نظاماً موفقاً
للحياة ثم تعرضه على الدنيا كنموذج يحتذى به .

وبهذا الطريق وحده تلتفت إليها الأمم الأخرى
ويستبق إليها أصحاب العقل الراجح والرأي السديد من
تلك الأمم ليتلقوها ويسعوا لترويجها في بلدانهم . وعلى
هذا فمجرد عرض نظام ما للعقيدة والمنهج على أمة دون
غيرها بادية ذي بدء وإن استنفد هذا العرض كل طاقات
التدليل والاحتجاج لاقتناع تلك الأمة وتثبيتها - ليس
دليلاً على كون ذلك النظام قومياً محضاً .

والخصائص التي تميز النظام القومي من النظام العالمي ،

والنظام المؤقت من النظام الخالد ، هي أن النظام القومي إما أن يدعو الى تفضيل شعب على غيره ويطالب له بحقوق ومميزات خاصة ، وإما أن يؤمن بمبادئ ونظريات لا تستطيع أن تروج وتزدهر في الشعوب الأخرى . وعلى العكس من ذلك فإن النظام العالمي يؤمن بالمساواة بين الناس ويعطي الجميع حقوقهم بدرجة متساوية ، وتكون مبادئه عالمية الصبغة ، عالمية الأهداف والمثل . ثم ان النظام المؤقت ينشئ بناءه على قواعد تفقد قابليتها للعمل بمرور الأيام ، بينما النظام الخالد تنطبق مبادئه على جميع الظروف المتطورة .

فهل من دارس للقرآن يدرسه واضعاً امام عينيه الخصائص المشار إليها . ثم يستطيع ان يحدد لنا ماخذ يبني عليها ظنه في كون النظام المعروض في كتاب الله نظاماً وقتياً وقومياً؟!

القرآن كتاب مبادئ عامة :

ومن الدارسين لهذا الكتاب من قد ألقى في سمعه كذلك

ان هذا الكتاب عبارة عن « مرشد للتوجيهات التفصيلية »
و « دليل للدستور » . ثم اذا انصرف الى قراءته لا يجد فيه
احكاماً وانظمة تفصيلية عن الاجتماع والمدنية والسياسة
والاقتصاد وما الى ذلك . بل إن الواجبات الهامة كالصلاة
والزكاة التي يعيد الكتاب ذكرها ويؤكد عليها بشدة لم
يدون لها احكام تفصيلية . ومثل هذا الأمر يشوش ذهنه
ويدفعه الى التساؤل : ما هو المراد من كونه مرشداً
للتعاليم الالهية ؟

وكل ما ينشأ هنا من تشويش في ذهن الإنسان مرده ان
يغيب عن باله احدى نواحي الحقيقة ، وهي أن الله لم ينزل
الكتاب فقط ، بل ارسل معه رسوله ايضاً . وأقول على
سبيل التمثيل : اذا كان المشروع المقصود هو وضع تصميم
لبناء وتقديمه للناس لينشئوا البناء وفق هذا التصميم . ففي
هذه الصورة لا بد لنا من تخطيط مطول يرشدنا الى كل
جزء من اجزاء البناء . اما اذا ولي احد المهندسين من قبل
الحكومة ومعه التوجيهات المعمارية العامة ، فان هذا المهندس
يشيد البناء وفق هذه التوجيهات ، ومن الخطل - اذن -
ان نصرف اعيننا عن المهندس وما شيده من البناء ، ثم

تتشد تفصيلات الجزئيات في التصميم ونشكو نقصه إن لم نجد لها فيه .

وكذلك القرآن ، ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية . ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الاسلامي بوضوح ثم يثبتها تثبيتاً قوياً بكلتا الطريقتين : التدليل العقلي والتحريض العاطفي . أما ما يتعلق بالصورة العملية للحياة الاسلامية فإنه لا يرشد الإنسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية عن كل ناحية من نواحي الحياة ، بل إنه حدد الحدود الأساسية لكل شعبة من شعب الحياة . ونصب معالم جليلة في بعض النواحي تشير الى خطوط عريضة يجب أن تؤسس عليها هذه النواحي وفق مرضاة الله .

حول الخلاف في تفسير القرآن :

وكان من مهمة النبي ﷺ تكيف الحياة الاسلامية في ضوء هذه الشرائع . ولم يبعث ﷺ إلا ليحقق نموذجاً من

السلوك الفردي ومن المجتمع والدولة يكون ترجمة حياة تتمثل فيها المبادئ التي قررها القرآن .

وهنا سؤال آخر يخالج أذهان الناس : القرآن أنحى باللائمة على الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الهدى من الله تعالى ، وتفرقوا في الدين . هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر توجد خلافات في تفسير أحكام القرآن وتأويلها لا بين المتأخرين فحسب ، بل بين التابعين ومن تبعهم حتى بين الصحابة أنفسهم ، الى درجة أنك لا تجد آية من آيات القرآن اتفق المفسرون على قول واحد في تفسيرها . أليس هؤلاء الناس يستحقون نفس اللوم الذي ورد في القرآن ؟ إذا كان الجواب لا ، فأي اختلاف وأي فرقة تلك التي ينكرها القرآن وينجي باللائمة على أصحابها .

هذه قضية متشعبة كثيرة الجوانب لا يجدر بنا في هذا المقام أن نتناولها بالبحث المبسط . وحلما يساور ذهن عامة الناس من التعقيد يكفي الإشارة الى أن القرآن لا يمنع الخلاف النزيه البناء الذي يقع بين القائلين على تفسير الأحكام والقوانين ، بناء على دراساتهم الجدية

المخلصة ، بينما هم يلتقون فيما يرجع الى أصل الدين ويتفقون فيما يتعلق بنظام الجماعة الاسلامية . أما الخلاف الذي يذمه القرآن فهو الذي نشأ من نفوس ذات هوى وعقول معوجة ، وانتهى به المطاف الى التكتل والطائفية الممقوته والنزاع الداخلي . وهذان الخلافان لا يتجانسان في أصلهما ولا يتشابهان في نتائجهما فكيف نحكم عليهما بحكم واحد . أما الخلاف من النوع الأول فهو جوهر الرقي والتطور ومصدر الحياة ونضارتها ، ولا بد من أن يوجد في كل مجتمع مكون من أهل الرأي والفكر . ووجوده دليل الحياة والحيوية ، ولا يخلو منه إلا مجتمع يتكون من أناس لا يتمتعون برجاحة العقل ووفرة الذكاء بل هم تماثيل خشبية ودمى لا حياة فيها . وأما الخلاف من النوع الثاني فيعلم جميع أهل الأرض انه ما ظهر في كتلة بشرية إلا ومزقتها شر ممزق وحطمها أشنع تحطيم . فظهوره من أمارات المرض لا من بشائر الصحة ، ولم تكسب أمة من الأمم منه إلا نتائج وخيمة وعواقب مؤلمة .

ويتجلى ما بين هذين النوعين من الخلاف من فروق في

الصورتين التاليتين :

في الصورة الأولى : يُجمع جميع الناس على طاعة الله

ورسوله ، ويعتقدون في الكتاب والسنة مصدرين للأحكام والتشريعات . ثم يختلف إمامان من أئمة الاجتهاد في تحقيق إحدى المسائل الفرعية او قاضيان في فصل إحدى الدعاوى . ولا يجعل أحدهما المسألة التي اختلف فيها أو الرأي الذي يراه عماداً للدين ، ولا يعتبر الذي يخالفه في ذلك خارجاً عن دائرة الدين . بل كلاهما يشبع رأيه بما عنده من الدلائل والمراجع الى أقصى ما يستطيع ثم يتركه للرأي العام إن كان رأيه يتعلق بمصالحه ، ولل قضاء العالي في البلاد إن كان الموضوع يرجع الى التحكيم ، ولنظام الجماعة الاسلامية إن كانت القضية قضية اجتماعية فيقبل رأي أحدهما أو كليهما .

وفي الصورة الأخرى : يجري الخلاف حتى في أسس الدين ، أو يختار عالم أو متصوف أو مفت أو مجادل أو زعيم رأياً في مسألة لم يجعلها الله ورسوله من مسائل الدين الأساسية ، ثم يجعله بتأويلات بعيدة من المسائل الأساسية للدين ، ويحكم على كل من يخالفه في ذلك بخروجه عن دائرة الاسلام ، ويشكل من أنصاره عصابة ويقول إن هذه هي أمة مسلمة أصيلة ومن شذ عنها شذ في النار ،

وينادي صارخاً : « عليك الانضمام الى هذه العصابة ان كنت مسلماً والافلست بمسلم » .

والقرآن حينما يذم الاختلاف والتكثف والطائفية والعصبية يذم الصورة الثانية . أما الخلاف في الصورة الأولى فنجد له أمثلة عديدة حتى في عهد النبي ﷺ . وأنه ﷺ لم يقره فقط بل استحسنه . لأن هذا الخلاف كان يبشر بوجود طاقات وكفاءات من التفكير والتأمل والتحقيق والتجري والتحسس والفهم والفقہ في كيان الجماعة الاسلامية . وكان يدلل على أن أصحاب الرأي والكفاءة في الجماعة يولون اهتمامهم الكبير للدين وأحكامه . وأن كفاءاتهم لا تتلمس حلولاً لمسائل الحياة من خارج الدين بل تتلمسها في داخله . وأن الجماعة بجملتها تأخذ بمبدأ جدير بأن يكتب بالتبر بدل الخبر : وهو الالتقاء على مبادئ الدين لكي تحافظ على وحدتها ، ثم إعطاء أهل العلم وقادة الرأي حريتهم في الاجتهاد والاستنباط والتحقيق في حدود سليمة لكي توفر لنفسها فرص التطور وجوانب التقدم .

هذا ما عندي والعلم عند الله ، عليه توكلت واليه أنيب .

المحتوى

صفحة	
٥	كلمة المترجم
٧	أسلوب الوحي وأسلوب البشر في الكتابة
١٠	معلومات أولية ضرورية
١٤	أصل القرآن
٢٠	موضوع القرآن وبجته الرئيسي وهدفه
٢٣	مراحل نزول القرآن:
٢٣	المرحلة الأولى.
٢٦	المرحلة الثانية.
٣١	المرحلة الثالثة.
٣٤	القرآن كتاب دعوة ومنهج حركة
٣٦	سر التكرار في القرآن
٣٨	كيف رتبت آيات القرآن
٤٢	تدوين القرآن
٤٧	منهج لدراسة القرآن
٤٩	منهج الدراسة التفصيلية الشاملة
٥٢	منهج دراسة مسألة بعينها
٥٢	شروط أساسية لدارس القرآن
٥٦	القرآن كتاب هداية للبشرية كافة
٦٠	القرآن كتاب مبادئ عامة
٦٢	حول الخلاف في تفسير القرآن

طبع على مطابع
دار لبنان
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ٥٦٢٠ - هاتفه ٤٩٣٠٤٣

٦٨/٢٢٠٠/١٦٠٥